**جامعة عبد الرحمن ميرة – بجاية.**

**كلية الآداب والعلوم الإنسانية.**

**قسم اللغة العربية وآدابها**

**المقياس علم المعاجم**

**السنة الاولى ماستر تخصص لسانيات عربية مج1 أة – بن دلالي**

**الموضوع خصوصيات التأليف المعجمي العربي**

**1- معالجة المادة المعجميّة** **العربية**:
مع ظهور المعجمات تطورت أساليب معالجة الألفاظ وانتقل الأمر من مجرد محاصرة المعنى، داخل السياق اللغوي والاجتماعي أو خارجه، إلى غايات أخرى متصلة بتدقيق أدواتهم في عملية الشرح والتفسير، ومن هذه الغايات: مسألة حصر مفردات اللغة والتنبيه على ما فيها من دخيل أو جمع صحاحها من دون تصحيف أو تحريف، فمعجم الجوهري المشهور بالصحاح استطاع صاحبه أن يجمع فيه قُرابة 40000 مادة مشروحة، وسيتطور هذا الكم في(القاموس المحيط) ليصل إلى 60000 مادة. وقد اشتمل (لسان العرب) لابن منظور على 80000 مادة. وقد وصل صاحب (تاج العروس)، في استدراكاته على القاموس، إلى 120000 مادة، وكل مادة من هذه المواد يمكن أن يتولد عنها ما لا حصر له من الألفاظ، قد يبلغ بها بعضهم إلى زُهاء 12 مليون لفظة.
لقد تبارى المعجميون في عملية الجمع إلى غاية قصوى، أصبح المعجم العربي معها ضربا من الموسوعات الهائلة، تختلط فيها اللغة بالأدب وبالتاريخ والخرافات والأساطير، مما جعل اقتحام هذه المعجمات لا يخلو من متاعب ((لا يستطيع من لم يتمرس بها أن يصل إلى ضالته فيها بيسر وسهولة))
يرى ابن منظور أن المشكلة مركبة، لها وجهان: الوجه الأول هناك مسألة الجمع من جهة، والوجه الثاني قضية الترتيب بعد الجمع، لذلك يصنف أصحاب المعجمات ((بين رجلين، رجل أحسن الجمع ولم يحسن الوضع (الترتيب)، ورجل أجاد الوضع مع رداءة الجمع، ولم يجد في كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة للأزهري، ولا أكمل من المحكم لابن سيده، إلا أن الناس أهملوهما لوعورة المسلك وسوء الترتيب...))
وهناك غاية أخرى، لعلها من أهم الغايات ، التي توخاها أصحاب المعجمات، تتصل اتصالا وثيقا بقضية الجمع والاستقصاء، ونعني بها مسألة توثيق المادة، ويبدو هاجس التوثيق جليا في تسمية أعمالهم، فكما أن أسماء مثل (القاموس) و (العباب) و(البارع) تحيل على عملية الاستقصاء والتبحر في الجمع، كذلك أسماء مثل، (المحكم) و(التهذيب) و (الصحاح) توحي بمعنى الحرص على الدقة والتثبت في النقل والرواية. لقد كان المعجميون على وعي بثقل المسؤولية ((فكان أحدهم يشعر أمام اللفظة بما يشعر به ناقل الحديث النبوي من حرج يجعله لا ينطق بالحرف إلا مسندا إلى قائله أو معزوا إلى راويه أو مؤيدا بالشاهد والدليل)) فكثرت الإحالات ومعها الوجوه والاختلافات وأثقلت المادة بأنواع من الشواهد والدلائل إلى حد التخمة وهذا كله لمزيد من إضفاء المصداقية على هذه الإحالات.
**2 ـ خصوصية جمع المادة اللغوية العربية:**
لا يمكن الحديث عن جمع المادة المعجميّة بمعزل عن جمع المادة اللغويّة إذ كانت العناية الأولى بجمع المادة اللغويّة استجابة إلى ما توجبه المحافظة على القرآن الكريم وتفهم معانيه من حفظ مادته اللغويّة وما ترمي إليه من دقيق الدلالة والمغزى وصحيح المبنى والمعنى( 1) وعلى ضوء ذلك أخذ العلماء يجمعون اللغة وكان هدفهم الأول جمع الكلمات الغريبة وتحديد معانيها ، ويعدّ (المربد) بالبصرة أول محطة رأى فيها العلماء وطلاب العربية تحقيق ذلك الهدف إذ كان (المربد) من أسواق البصرة التي يقصدها الأعراب للمتاجرة ولتبادل المنفعة، وربما حضر بعضهم وليس عنده سلعة يبيعها ولا رغبة في شراء وإنّما جاء ليشبع رغبته في القول والإنشاد واستماع الشعر والأخبار كما هي عادة العرب في أسواقها . وكان أهل البصرة يخرجون إلى هذه السوق وبينهم فئة من رواة اللغة وطلابها جاءوا ليدونوا ما يسمعون عن هؤلاء الأعراب ، وكان من بين هؤلاء الأصمعيّ (215هـ)؛ إذ يقول :(( جئت إلى أبى عمرو بن العلاء فقال : من أين جئت يا أصمعي ، قلت: من المربد قال: هات ما معك ، فقرأت عليه ما كتبت في ألواحي ، ومرّت به ستة أحرف لم يعرفها فأخذ يعدو في الدّرجة قائلاً: شمّرت في الغريب ياأصمعيّ))(2)
وعندما أحسّ الأعراب بالحاجة إليهم أخذوا يرحلون إلى الأمصار فرادى وجماعات يعرضون بضاعتهم من اللغة ، ويتلقاهم العلماء للسماع عنهم ويتنافسون في الأخذ منهم حتى أصبحت اللغة سلعة غالية يبيعها الأعراب ويشتريها الرواة في (المربد) بالبصرة وفي (الكناسة) بالكوفة ، بل إنّ منهم من اتّخذ التعليم مهنة له كأبي البيداء الرياحي الذي كان يعلم الصبيان بأجر( 3) . ومنهم من ألّف الكتب كأبي خيرة الأعرابيّ الذي ألف كتاباً في الحشرات وآخر في الصفات( 4) .وكان من بين الاعراب الذين يرجع اليهم في ما اختلف فيه بين العلماء مثل : أبو مهدي والمنتجع من أبرز الذين يُتَحَاكَمُ إليهم ، كلّ يمثل لهجة قومه ؛ يقول الأصمعيّ :((جاء عيسى بن عمر الثقفيّ ونحن عند أبي عمرو بن العلاء فقال يا أباعمرو: ما شيء بلغني عنك تجيزه ؟ قال: وما هو؟ قال بلغني أنك تجيز ليس الطيب إلا المسك (بالرفع) فقال أبوعمرو: نمت وأدلج الناس. ليس في الأرض حجازيّ إلا وهو ينصب، وليس في الأرض تميميّ إلا وهو يرفع . ثمّ قال أبو عمرو: قم يا يحي- يعني اليزيديّ - وأنت يا خلف- يعني خلف الأحمر- فاذهبا إلى أبي المهديّ فإنّه لا يرفع ، واذهبا إلى المنتجع ولقناه النصب فإنه لا ينصب . قال : فذهبنا فأتينا أبا المهديّ...قال اليزيديّ : ليس ملاك الأمرإلا طاعةُ الله والعملُ الصالح فقال : ليس هذا لحني ولا لحن قومي ؛ فكتبنا ما سمعنا منه ، ثمّ أتينا المنتجع فأتينا رجلاً يعقل ، فقال له خلف: ليس الطيب إلا المسكَ (بالنصب) فلقّنّاه النصب وجهدنا فيه فلم ينصب وأبى إلا الرفع))( 5)
ولما طال مكث الأعراب في الحضر لانت جلودهم وطاعت ألسنتهم بشوائب العجمة ؛ يقول الجاحظ(255هـ) :(( كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة وبينه يوم مات بون بعيد على أنّه كان قد وضع منزله آخر موضع الفصاحة وأول موضع العجمة ))( 6)
فلما ضعفت ثقة العلماء بالأعراب رحل العلماء والرواة إلى البادية بمدادهم وصحفهم ليسمعوا من أولئك الذين لم تتأثر ألسنتهم بمخالطة الأعاجم ، قال أبو العباس ثعلب(291هـ) : ((دخل أبو عمرو الشيبانيّ (إسحاق بن مرار) البادية ومعه دستيجان حبراً فما خرج حتى أفناهما بِكَتْبِ سماعه عن العرب )).وممن خرج إلى البادية الكسائيّ (189هـ)، ورجع وقد أنفد خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ . وكان أبو عمرو بن العلاء من أوائل الرواة الذين رحلوا إلىالبادية وأعجب بأهلها وعدّ بعضهم من أفصح العرب لساناً وأعذبهم لغة .
وهكذا ظل التواصل مستمراً بين الرواة والبادية وحرص العلماء على مشافهة الأعراب حتى وجدنا في أواخر القرن الرابع من يروي عن الأعراب كالأزهريّ ، (ت370هـ) ، وابن جنيّ (ت392هـ) ، والجوهريّ (ت393هـ) وابن فارس (ت395هـ) . ثمّ توقّف هذا التواصل مع نهاية هذا القرن حتى أصبحت الرواية عن الأعراب أنفسهم يشوبها شيء من الحذر ، يقول ابن جنيّ(392هـ): (( أنا لا نكاد نرى بدوياً فصيحاً وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه لم نكد نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه وينال ويغض منه))( 7) .
ويرى بعض الباحثين أنّ الطبقة التي تلت الخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب كانت من أغزر العلماء إنتاجاً ، ومنهم ثلاثة رواة يعدون عصب الرواية في البصرة وهم : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وأبو زيد الأنصاري ، وعبد الملك بن قريب الأصمعيّ .
وقد حدد اللغويون مادة جمعهم فيما صحّ عن العرب ضمن معايير ثابتة هي:
1- معيار المكان : وهو الفيصل الذي تم بمقتضاه تحديد مواطن الفصاحة في وسط الجزيرة العربية من دون بقية أطرافها التي كانت على صلة بالأمم الأخرى، وفي بواديها من دون الحواضرالتي كانت تعجّ بحركة الوافدين عليها من خارج الجزيرة أو من أطرافها بقصد التجارة ونحوها .
2- معيار الزمان : وهو الفيصل الذي تم بمقتضاه تحديد عصورالفصاحة عند منتصف القرن الثاني الهجري بالنسبة للاحتجاج باللغة الأدبية وخاصة لغة الشعر، ونهاية القرن الرابع الهجري بالنسبة للاحتجاج باللغة الشفوية المنقولة عن الأعراب.
3- معيار الفصاحة وهو الشرط الذي تم بمقتضاه الحكم على فصاحة اللفظ إذا ثبتت نسبته إلى عربيّ قحّ سواء بالمشافهة أو الرواية الصحيحة وذلك العربي القحّ هو من انطبق عليه شرط الزمان والمكان السابقين . وعلى ضوء هذه المعايير عُدّ كلّ ما خالف ذلك مولداً ، فَقُسِّم الشعراء على طبقات، والقبائل على درجات ، أعلاها قبيلة قريش ؛ يقول أحمد بن فارس(395هـ): (( أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم : أنّ قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة ...وكانت قريش – مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها-إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم فصاروا بذلك أفصح العرب...ألا ترى أنّك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفيّة قيس ولا كشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة...))( 8) .
ويقول الفارابي(250هـ): (( كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عمّا في النفس))( 9) و قوله مرتبا درجة الفصاحة : ((والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اُقْتُدِيَ وعنهم أُخِذَ اللسانُ العربي من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتّكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثمّ هذيل وبعض كنانة وبعض الطّائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ، وبالجملة فإنّه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم، فإنّه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام فإنهم كانوا مجاورين أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من إياد فإنهم كانوا مجاورين أهلَ الشام ، وأكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية ، ولا من تغلب ولا النمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أزد عمان لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم ؛ ولامن بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وسكــان الطائف؛ لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم …))( 10)
ولكنّ اللغة لم تجمع دفعة واحدة ، بل اتّخذ جمعها أشكالاً مختلفة قسّمها بعضهم على ثلاث مراحل هي :
المرحلة الأولى: جمع الكلمات كيفما اتفق فالعالم يرحل إلي البادية فَيُدَون كلّ ما سمع من غير ترتيب ولا تنظيم فيجمع كلمة في المطر وكلمة في النبات وكلمة في الخيل ونحو ذلك .المرحلة الثانية: جمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد، وقد توجت هذه المرحلة بظهور الرسائل اللغويّة التي عرفت بأسماءٍ من نحو: المطر، البئر ، والخيل ، والإبل ونحو ذلك ( 11) .
ويعد موضوع الحشرات أقدم الموضوعات ، وأول من نسب إليه كتاب في ذلك أبو خيرة الأعرابي ثم تلاه بعد ذلك بعض اللغويين فألفوا في الموضوع نفسه ككتاب النحلة للشيبانيّ والأصمعي والذباب لابن الأعرابي ونحو ذلك (12) .
المرحلة الثالثة: وضع معجم يضم كلّ الكلمات على نمط خاص وترتيب معين ، ويعد الفراهيدي (ت175هـ) أول من وضع أعظم عمل لغويّ إذ سنّ لمن جاء بعده منهج التأليف المعجميّ فظهرت المعجمات اللغوية ،التي من أبرزها: الجمهرة لابن دريد(ت321هـ) ، والبارع للقالي (ت356هـ) ، وتهذيب اللغة للأزهريّ(ت370هـ) ، والمحيط للصاحب بن عباد (ت385هـ) ، ومقاييس اللغة والمجمل لابن فارس(ت395هـ) ، والصحاح للجوهريّ(ت400هـ)، والمحكم لابن سيده(ت458هـ) ، وأساس البلاغة للزمخشريّ(ت538هـ)، والعباب للصغانيّ (ت650هـ) ، ولسان العرب لابن منظور(711هـ) ، والقاموس المحيط للفيروزاباديّ(ت817هـ) ، وتاج العروس للزَبيديّ (ت1205هـ) .

**3- مناهج الصناعة المعجمية العربية:**

3-1 المعاجم العربية القديمة والمنهج المعياري في جمع المواد:

اعتمد أصحاب المعاجم العربية قديما على معيار الفصاحة في جمع مادة معاجمهم، وذلك بحجة الحفاظ أو الحصول على مواد نقية خالصة الفصاحة ضامنين بذلك صيانة الأصالة في اللغة العربية لفظا ومعنا.

يعتبر هذا المعيار واحدا من أهم المسائل في الدرس اللغوي العربي القديم بما فيه المعاجم وصناعتها، فقد استقر في الأذهان أن العلماء العرب قعدوا للغتهم خوفا عليها من الفساد واللحن الذي أصابها إثر مخالطة العرب للعجم، فاستخرجوا قواعد العربية( أصواتها،وصرفها، ونحوها،ومعجمها ودلالتها) من مادة لغوية مفلترة وتامة التعيير قد حرصوا على أخذها من مصادر لم يصبها اللحن والفساد،هي مادة لغوية وسموها بالفصيحة، وهي الصفة الفاصلة بين ما يصلح للجمع ليدخل المعجم من عدمه، فحدد القدماء للفصاحة أهلا معينين وزمنا ومكانا محددين، وقد فصل (الفارابي) في (الألفاظ والحروف) حديثه عن القبائل العربية التي أخذت منهم العربية: " كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق بها، وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما في النفس، والذين عنهم نقلت العربية، وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين..." كما تم تحديد الفصاحة زمانيا ومكانيا بالقرن الثاني من الهجرة بالنسبة للحواضر والمدن، وبالقرن الرابع الهجري بالنسبة للبادية.

وهكذا كانت الدراسات اللغوية العربية القديمة معيارية في جمع المادة اللغوية، التي شكلت في النهاية مدونة فصيحة منها تم تقنين وتقعيد العربية وصناعة معاجمها، وما لم تخضع هذه المدونة لمعيار الفصاحة حكم عليها بالشذوذ والفساد، وبأنها غير صالحة للدراسة ولا يمكن إدخالها في المعجم العربي القديم، إذ امتنع أغلب صانعي المعاجم القدماء عن جمع الكثير من الألفاظ والمصطلحات والعبارات بدعوى عدم مطابقتها لنظرية الاحتجاج الرامية إلى الحفاظ على أصالة اللغة العربية. وبسبب معيارية هذه المعاجم وجهت لها الكثير من الملاحظات والانتقادات السلبية من طرف اللغويين المحدثين العرب،إذ وصف (إبراهيم أنيس) هؤلاء الداعين إلى المحافظة على أصالة التراث اللغوي العربي بصفة التزمت، فقال:" فهناك قوم من المتزمتين الذين ينادون بأنه يجب أن نقف عند نصوص أجدادنا العرب لا نتعداها ولا نجاوزها"، فالمعيارية من هذه الوجهة لا تتناسب مع المنهج العلمي الموضوعي القائم على وصف اللغة كما هي لا كما يفترض أن تكون.

كما يعتبر (أحمد فارس الشدياق)من أبرز من تصدى للمعجمات العربية القديمة وذلك ظاهر لاسيما في كتابه (الجاسوس على القاموس)الذي ألفه في نقد القاموس المحيط (للفيروزآبادي)، والذي لم يرض ذوق الشدياق نظرا لمعياريته، فدعا إلى ضرورة تضمين المعاجم بروح العصر، لا أن تبقى سجينة للماضي الذي ولى زمانه وانتهى، بل أن تتفتح المعاجم على المصطلحات العلمية والحضارية والثقافية التي استجدت ولا تزال تستجد وتتوارد على اللغة العربية.

كما عاب (أحمد مختار عمر)على القدماء منهجهم المعياري في صناعاتهم المعجمية، هذا الأخير من المنتصرين للمنهج الوصفي الذي يقوم عليه الدرس اللساني الحديث، فحمل (أحمد) القدماء وزرا ثقيلا إذ أهملوا جمع المادة اللغوية العربية التي عاصرت زمانهم، فحرمونا من الاطلاع على المسار التطوري للمادة اللغوية العربية خلال العصور اللاحقة، ويرى ان هذا التصرف قد أثر سلبيا على الصناعة المعجمية العربية.

واعتبر (شوقي ضيف) المعاجم القديمة ذات المنهج المعياري قاصرة، فوصفها باتخاذها لنفسها أسوارا من المكان والزمان لا تتجاوزها فيما أحصت من الكلمات وجمعت.

**هذه** المناهج التي لازمت التأليف المعجمي العربي لا يمكن تجاهل خلفياتها التعليمية، ولكن المعجمي وهو يلتزم بها يريد أن يبقى في السكة التي نهجتها الثقافة الإسلامية في مختلف علومها، سكة الدقة والتثبت في الرواية على غرار ما كان يفعله رواة الحديث النبوي فابتكروا لذلك سبلا معقدة في كيفية بناء الأسانيد وضبط الروايات، فأصحاب المعجمات إذن وهم يقومون باستقصاءاتهم اللغوية واختباراتهم المنهجية وتكثيف الروايات والشواهد، لا يهمهم أن تطول المادة أو تقصر، ولا يعنيهم أن تلتف مسالكها وتتعقد إلى حد يجعل اقتحامها من الأمور العسيرة لأنهم لم يكونوا يأخذون بالحسبان جمهور المتعلمين والطلاب، ولم يضعوا نصب أعينهم الكيفية التي يمكن أن يستفيد بها هؤلاء من أعمالهم، بل تجد منهم من يستنكر إسناد مهمة الإلمام باللغة لتكون بواسطة المعجمات مثلما فعل الصاحب بن عباد(324-385) صاحب معجم (المحيط) تجاه الهمذاني(ت 320هـ) صاحب كتاب (الألفاظ الكتابية) ، قائلا:( لو أدركت عبد الرحمان بن عيسى مصنف كتاب الألفاظ لأمرت بقطع يده ) فسئل عن السبب فقال: ( جمع شذور العربية الجزالة في أوراق يسيرة فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ورفع عن المتأدبين تعب الدروس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة )، فبالنسبة إلى ابن عباد، عملية التعليم يجب أن تتركز على الرواية وتمرين القريحة على الحفظ، وقوة العارضة في الحفظ مهما بلغت، فهي لا تستطيع أن تطال ضخامة المتن المعجمي الذي يصل إلى ملايين المفردات...
فأصحاب المعجمات القدماء لم يكن يعنيهم شؤون الناشئين من طلاب اللغة العربية (ولم يأخذوا بعين الاعتبار موضوع الحجم أو موضوع القيمة المادية للمعجم).
**الهوامش** :
(1 )الصحاح ـ مقدمة المحقق ـ 35.
(2 )معجم البلدان 2/252.
(3 )البيان والتبيين 1/252.
( 4)الفهرست 70.
( 5)الأمالي 3/39.
( 6)البيان والتبيين 1/147.
( 7)الخصائص 3/5.
( 8)الصاحبي 33.
( 9)المزهر 1/211.
( 10)م . ن 1/212.
( 11) ضحى الاسلام 263 . وينظر : رواية اللغة 103.
( 12)الفهرست 1/64